بحث قرآني ولون من التفسير الموضوعي

الخلافة في الأرض

تأليف

أ.د. أحمد حسن فرحات

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليًّاً مرشداً. والصلاة والسلام على سيد الخلق وإمام الهدى سيدنا محمدٍ المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحابته ومن سار على نهجه ودربه واقتفى آثاره إلى يوم الدين وبعد :

فلقد أنزل الله القرآن الكريم هدىً للناس وضياءً، وتعبَّدنا بتلاوته وتدبر معانيه، والتفكر في آياته، والاعتبار بقصصه وأخباره

(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها) .

ولقد مضى سلف الأمة على ذلك يفكرون في القرآن ويستنبطون الأحكام ، ويبينون مافيه من الحلال والحرام وما تضمنه من التوجيهات والإرشاد ، فكتبوا التفاسير الكثيرة ، وألّفوا الكتب العديدة ، وأودعوها بعض ما توصلوا إليه من العلوم والفهوم ، وما كشفوه من الأسرار والغوامض ، وذلك استجابة لحاجة عصورهم التي عاشوها ، وحلًّا للمشكلات التي واجهوها ، ولقد بذلو جهوداً مشكورة ، تدل على عظم اهتمامهم بهذا الكتاب الكريم ، وحرصهم على ترسُّم هداه وتوجيهاته في كل شؤون حياتهم .

غير أن القرآن الكريم هو كتاب هذه الأمة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وقد أودعه الله مالا يحصى من المعاني والتوجيهات والهدايات مما يفي بحاجة البشرية كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ومن ثم كان كل جيل من أجيال الأمة مطالباً بأن يقرأ القرآن ويفكر فيه في مواجهة حاجات عصره وأن يستنبط منه القيم والموازين التي تحكم الحياة وأن يقيم على أساسه خططه ومناهجه ، وأن يترسم في طريقة حياته شعائره وشرائعه ، ليكون على هدى من ربه وبصيرة من أمره.

وتشتد حاجة هذه الأمة في عصرنا الراهن إلى استلهام القرآن في كل شؤونها، وفهمه في مواجهة الحاجات الجديدة ، والتحديدات الكبيرة بعد أن أقصي الإسلام عن الحكم، وأبعدت شريعته عن التنفيذ، وحصر في الشعائر التعبدية والأحوال الشخصية ، واضطرب أمر المسلمين بعد أن خرجوا عن المسار ، فضعفت قوتهم وطمع فيهم عدوهم ، وغزتهم المذاهب المادية ، والأفكار المنحرفة ، فَفَرَّقت جمعهم ، وشتَّتَت شملهم، وجعلتهم شيعاً وفرقاً

(كُلُّ حِزبٍ بِما لديهم فَرِحون) .

بل لقد تجاوز هذا الغزو طرح الأفكار المستوردة، إلى التشكيك بقيم الإسلام الخالدة ومصطلحاته ومفهوماته، وذلك بتشويه أهدافها ومقاصدها ، وتحريف معانيها ودلالاتها ، الأمر الذي يتطلب منا أن نعود إلى هذه القيم والمصطلحات من جديد، فنعيد دراستها دراسةً علميةً صحيحة محررين

مفهومها تحريراً دقيقاً، معتمدين في ذلك على قرآننا الكريم، وسنتنا النبوية، ولغتنا العربية، وأن نزيل عنها ما لحق بها من التشويه، وأن نعرضها للناس ناصعة البياض كما جاءت لتكون انطلاقة الإسلام الجديدة صافية التصور واضحة الرؤية.

وفي الصفحات التالية دراسة لمصطلح « الخلافة في الأرض » في اللغة والقرآن، وتتبع واستقصاء لاشتقاقاته واستعمالاته ، وتأييد له بما أثر عن الرسول ﷺ في ذلك ، وما ذكره الصحابة رضوان الله عليهم ، لعل ذلك يكون إسهاما في توضيح مدلول هذا المصطلح وتحديد معناه .

والله نسأل أن يجعل عملنا خالصا لوجهه إنه سميع مجيب .

الدكتور أحمد حسن فرحات

جامعة الكويت – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

١٩٨٥/١١/١

معنى كلمة « الخلافة »

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: [1]

خلف فلان فلانا : قام بالأمر عنه إما معه ، وإما بعده .....

والخلافة : النيابة عن الغير ، إما لغيبة المنوب عنه ، وإما لموته، وإما لعجزه ، وإما لتشريف المستخلف ...

وقال أبو بكر الأدفوي في « الاستغناء » [2] :

وجمع « خليفة » : خلفاء ، مثل كريم وكرماء . قال الله :
(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) .
قال أبو جعفر[3]: ويجوز « خلاف » مثل كرام، لأن الهاء زائدة . قال:
ويجوز « خلائف »- تشبيها بـ« صحيفة، وصحائف » قال الله ﷻ :
(هو الذي جعلكم خلائف الأرض) .
ونلاحظ هنا أن المفسرين: لم يذكروا فرقا في المعنى بين صيغتي « خلائف » و « خلفاء ».

وقد ظهر لنا فرق بينهما من خلال استعمال القرآن لهاتين الصيغتين- سنذكره في مكانه من هذا البحث - ولكن بعض علماء النحو، والصرف: ذكروا بعض الفروق العامة، بين صيغ « فُعلاء »

و « فعائل » و « فِعال » .

ولعله من المستحسن: أن نعرف الفرق: بين صيغ هذه الجموع :

يطِّرد « فُعلاء » جمعا ل « فعيل » وصف ذكر عاقل بمعنى « فاعل » ... وربما جمع « فعيل » غير المنقوص -صحيح العين، أو معتلها- أو فعيلة على « فِعال » كظريف، وظريفة، وظراف. وكريم وكرام، وطويل، وطوال .

فوزن « فُعلاء » يدل على السجايا- ما كان منها غريزة، أو كالغريزة- ذلك لأنه: جمع « فعيل ».

---

[1] – المفردات ١٥٦

[2] – الاستغناء : ورقة : ٦٩ – مخطوطة تركية – .

[3] – يريد : أبو جعفر النحاس – أستاذه – .

و« فعيل »: يدل على السجايا، والطباع.

ويرى الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي" أن الأصل في « فُعلاء »: أن يكون للسجايا النفسية.

وأن « فِعالاً » للأوصاف المادية ...

كما يرى أن الفرق بين « فِعال » و « فعائل »: أن ما جمع على « فعائل »: يراد به الاسمية. لأن هذا الوزن- من جموع الأسماء- كالصحائف، والقلائد ... فما حُوِّلَ من الصفات، إلى الأسماء: جمع على « فعائل ». وما أريد به الوصفية: جمع على" فِعال" [١] .

وقال صاحب المصباح المنير [٢] : واستخلفته : جعلته خليفة .

فـ « خليفة »: يكون بمعنى « فاعل ». وبمعنى « مفعول » .

خلافة آدم عليه السلام :

قال الله تعال :

(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة .. »:

يرى جمهور المفسرين أن المقصود بـ « الخليفة » في الآية هو آدم عليه السلام ، بينما يرى بعضهم: أن كلمة « خليفة » مفرد- أريد به: الجمع- ، أي : خلائف ، وعلى هذا فالمراد بالآية: آدم، وبنوه .

ويرى مكي بن أبي طالب [٣] أن « خليفة » - في الآية – إذا كانت بمعنى « مفعول » كان معناها:

إني جاعل في الأرض خلفاء، يخلف بعضهم بعضاً ، لا بقاء لهم .

وإذا كانت بمعنى « فاعل »، فمعناها : يخلفون من كان فيها، ممن هلك .

وذلك أن أهل التفسير: ذكروا أنه روي أن الأرض: كان فيها خلق من الجن ، فأفسدوا فيها ، فأهلكهم الله .

١– انظر معاني الأبنية في العربية للدكتور السامرائي ١٦٥ – ١٧١ بتصرف .

٢ – المصباح المنير ١٩٢ .

٣ – الهداية إلى بلوغ النهاية – مخطوطة مدريد – ورقة : ٢٧ .

وعلى هذا ، فالخلافة – بهذا المعنى – هي النيابة عن الجن، في الإقامة في الأرض، وسكناها من بعدهم [1] .

خلافة عن الله :

ويرى فريق من المفسرين ، أن الخلافة – في الآية – خلافة عن الله.

قال ابن كثير في معنى « خليفة » : قال السدي في تفسيره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة، أن الله تعالى قال للملائكة :

(إني جاعل في الأرض خليفة)

قالوا : ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال : يكون له ذرية: يفسدون في الأرض ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضا .

قال ابن جرير: فكان تأويل- الآية على هذا-: "إني جاعل في الأرض خليفة مني، يخلفني في الحكم بين خلقي، وإن ذلك الخليفة: هو آدم، ومن قام مقامه، في طاعة الله، والحكم بالعدل، بين خلقه . وأما الإفساد، وسفك الدماء بغير حقه، فمن غير خلفائه " [2] .

وقال أبو حيان : والأنبياء : هم خلائف الله في أرضه . واقتصر على آدم ، لأنه أبو الخلائف. كما اقتصر على « مضر »، و « تميم » بـ« قيس ». والمراد : القبيلة.

وقال القرطبي [3] : والمعني بـ« الخليفة » - هنا – في قول ابن مسعود، وابن عباس، وجميع أهل التأويل- : آدم عليه السلام - وهو خليفة الله، في إمضاء أحكامه، وأوامره - لأنه أول رسول إلى الأرض .

---

١ – وهذا التفسير إنما يجوز فيما لو صحت تلك الروايات التي ذكرها المفسرون من سكنى الجن الأرض قبل آدم وإهلاكهم بعد ذلك . والظاهر أنه لم يصح من ذلك شئ . وانظر في نقد مثل هذه الأخبار ما ذكره ابن كثير في تفسيره : ١٠٨/١ – ١١١ .

٢ – تفسير ابن كثير: ١٠٠/١ وإسناد هذا الخبر حسن .

٣ – تفسير القرطبي : ٣٦٣/١ .

أما البيضاوي: فإنه يعلل كون آدم، وكل نبي: خليفة الله، بتعليل آخر، وذلك حينما يقول :

« والخليفة: من يخلف غيره، وينوب منابه – والهاء فيه للمبالغة – والمراد: آدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان خليفة الله في أرضه. وكذلك كل نبي. ا ستخلفهم الله في عمارة الأرض، وسياسة الناس، وتكميل نفوسهم ، وتنفيذ أمره فيهم ، لا لحاجة به تعالى، إلى من ينوبه . بل لقصور المستخلف عليه، عن قبول فيضه، وتلقي أمره، بغير واسطة ، ولذلك لم يستنبئ ملكاً، كما قال تعالى :

(ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً).

ألا ترى أن الأنبياء: لما فاقت قوتهم، واشتعلت قريحتهم- بحيث يكاد زيتها يضئ، ولو لم تمسسه نار- أرسل إليهم الملائكة ، ومن كان منهم أعلى رتبة: كلمه بلا واسطة، كما كلم موسى عليه السلام في الميقات ، ومحمداً ﷺ ليلة المعراج .

ونظير ذلك في الطبيعة: أن العظم- لما عجز عن نول الغذاء من اللحم، لما بينهما من التباعد- جعل الباري بحكمته: بينهما الغضروف المناسب، ليأخذ من هذا، ويعطي ذلك » [1] .

كذلك نرى الراغب الأصفهاني- بعد أن ذكر النيابة عن الغير لتشريف المستخلف- في معرض تفسيره للخلافة يقول :

وعلى هذا استخلف الله أولياءه في الأرض ، قال تعالى :

(هو الذي جعلكم خلائف في الأرض) وقال :

(ويستخلف ربي قوماً غيركم) .

أما ابن تيمية: فقد ذهب إلى أنه لا يجوز أن يكون « الخليفة »: خليفة عن الله تعالى .
قال : « والله لا يجوز له خليفة ، لما قالوا لأبي بكر : يا خليفة الله ! قال : لست بخليفة الله ، ولكني خليفة رسول الله ﷺ ، حسبي ذلك . بل هو سبحانه يكون خليفة لغيره ، قال النبي ﷺ :
« اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل ، اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا » وذلك لأن الله حي ، شهيد ، مهيمن ، قيوم ، رقيب ، حفيظ ، غني عن العالمين ،ليس له شريك ولا ظهير ، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه .
والخليفة: إنما يكون عند عدم المستخلف- بموت، أو غيبة- ، ويكون لحاجة المستخلف إلى

الاستخلاف. وسمي « خليفة » لأنه خلف عن الغزو ، وهو قائم خلفه.

---

١ – البيضاوي : ٢٢ .

وكل هذه المعاني: منتفية في حق الله تعالى ، وهو منزه عنها ، فإنه حي قيوم شهيد، لا يموت. وهو غني، يرزق، ولا يُرزق . يرزق عباده، وينصرهم، ويهديهم ويعاقبهم، بما خلقه من الأسباب، التي هي من خلقه ، والتي هي مفتقرة إليه، كافتقار المسببات، إلى أسبابها. فالله هو الغني الحميد، له ما في السموات، وما في الأرض، وما بينهما.

(يسأله من في السموات والأرض كل يومٍ هو في شأن) [١]

(وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) [٢]

ولا يجوز أن يكون أحد خلفاً منه ، ولا يقوم مقامه ، لأنه لا سمِّيَ له ، ولا كفء له ، فمن جعل له خليفة فهو مشرك به » [٣] .

ولا شك أن ما ذهب إليه ابن تيمية – هنا – محل نظر ، لأن الذين أجازوا :« الخلافة عن الله »، لم يجيزوها على أساس موت المستخلف، أو غيبته، أو عجزه ، وإنما أجازوها على معنى آخر، وهو ما أشار إليه الراغب، من أن الخلافة- كما تكون بعد المستخلف: لغيبته، أو موته، أو لعجزه- .كذلك تكون معه: لتشريف المستخلف . وعلى هذا فما ذهب إليه ابن تيمية من المنع: صحيح بالنسبة للمعاني التي ذكرها .

وما ذكره غيره من الجواز: إنما يتأتى على المعنى الآخر، الذي هو التشريف، والذي أعقبه الراغب بقوله : « وعلى ذلك استخلف الله أولياءه في الأرض »

أما ما استشهد به ابن تيمية من قول أبي بكر ﷺ- فيمكن أن يحمل على التواضع-، لأنّ أبا بكر ﷺ لم ينكر على قائل ذلك، ولم يقل له: بأن هذا شرك ، وإنما نفى ذلك، واستكثره، بدليل قوله :

« حسبي ذلك » .

وقد سبق أن بيّنَا أنّ هذا المعنى قد روي عن ابن عباس، وابن مسعود، وناس من الصحابة ، بل ورد في بعض الأحاديث النبوية: ما يشهد لهذا القول، وهو ما أخرجه أحمد في مسنده عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

---

١ – الرحمن : ٥٥

٢ – الزخرف ٤٣

٣ – الفتاوي ٣٥ / ٤٥

« إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فأتوها فإن فيها خليفة الله المهدي » [1]

وقال الزجاج : جاز أن يقال : « للأئمة » : خلفاء الله في أرضه ، بقوله ﷻ :
(يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض) .
ونلاحظ على هذه الأقوال: أنها تجعل الخلافة عن الله للأنبياء، والأولياء، والأئمة ، وتسكت عن بقية الناس .

والخلافة بهذا المعنى : النيابة عن الله معه – سبحانه – لتشريف المستخلف . وهم الأنبياء والأولياء، والأئمة.

وقد ذكر صاحب المصباح المنير [2] قول بعضهم :

« ولا يقال : خليفة الله – بالإضافة – إلا لآدم، وداود، لورود النص بذلك » ثم قال :

وقيل : يجوز – وهو القياس – لأن الله تعالى جعله خليفة ، كما جعله سلطانا ، وقد سمع : سلطان الله ، وجنود الله، وحزب الله ، وخيل الله - والإضافة تكون بأدنى ملابسة - وعدم السماع لا يقتضي عدم الاطراد، مع وجود القياس . ولأنه نكرة تدخله اللام للتعريف ، فيدخله ما يعاقبها ، وهو الإضافة كسائر أسماء الأجناس .

ويرى الثعالبي في فقه اللغة أن العرب تضيف بعض الأشياء إلى الله – عز ذكره – وإن كانت كلها له ، فتقول : بيت الله ، وظل الله ، وناقة الله .

قال الجاحظ : كل شيء أضافه الله إلى نفسه فقد عظَّم شأنه، وفخَّم أمره ، وقد فعل ذلك بالنار ، فقال:

(نار الله الموقدة) .

ويروى أن النبي ﷺ قال لعتبة بن أبي لهب:

أكلك كلب الله [3]، فأكله الأسد !!

---

١ – مسند أحمد : ٢٧٧/٥ والفتح الرباني : ٥١/٢٤ وابن ماجه في الفتن : ٣٤ – وقد قال صاحب الفتح الرباني في تخريجه : رواه الحاكم في المستدرك عن خالد الحذاء عن أبي قلابة بأطول من هذا . وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي ، وأورده ابن ماجه عن خالد الحذاء أيضا بلفظ قريب وقال في الزوائد : هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات . وهذا الحديث مما طعن فيه ابن الجوزي وذبَّ عنه الحافظ في القول المسدد في الذب عن مسند الإمام أحمد .. » .

٢ – المصباح المنير : ٢١٣ .

٣ – الحديث في مجمع الزوائد : ١٩/٦ وقال : رواه الطبراني مرسلا وفيه زهير بن العلاء وهو ضعيف .

ففي هذا الخبر فائدتان : إحداهما أنه ثبت بذلك أن الأسد كلب . والثانية : أنه لا يضاف إليه إلا العظيم من الأشياء في الخير والشر .

أما الخير : فكقولهم : أرض الله ، وخليل الله ، وزوار الله . وأما الشر : فكقولهم : دعه في لعنة الله وسخطه وأليم عذابه ، وإلى نار الله وحرِّ سقره » [1]

وعلى هذا القول يكون الإنسان خليفة الله في أرضه ، بمعنى أن الله ا ستخلفه فيها ، فيكون من إضافة المفعول- الذي هو المستخلف- إلى الفاعل: الذي هو الله سبحانه .

ويشهد لهذا المعنى: أحاديث مروية عن الرسول ﷺ منها ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:
« مابعث الله من نبي، **ولا استخلف من خليفة:** إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف، وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر، وتحضه عليه. والمعصوم: من عصم الله » .
البخاري : ١٦٤/١٣ في الأحكام
ومنها ما أخرجه أحمد في مسنده من حديث طويل عن حذيفة بن اليمان :

« ...فقلت يا رسول الله أيكون بعد هذا الخير شر كما كان قبله شر ؟ فقال: نعم . قال قلت فما العصمة يا رسول الله ؟ قال: السيف ، وهدنة على دَخَن ، قال قلت : ثمَّ ماذا ؟ قال : تنشأ دعاة الضلالة فإن كان **لله يومئذ في الأرض خليفة-** جلد ظهرك، وأخذ مالك فالزمه ، وإلا فمت وأنت عاض على جذع شجرة ... »

المسند ، ٤٠٣/٥ والفتح الرباني : ٢٥/٢٤

ما استخلف فيه آدم :

قال أبو حيان : وفي المستخلف فيه آدم قولان :

أحدهما : الحكم بالحق والعدل .

الثاني : عمارة الأرض ، يزرع ويحصد ، ويبني ويجري الأنهار .

هذا مجمل لما ذكره العلماء والمفسرون في معنى الخلافة في الأرض ومدلولها .

---

١ – فقه اللغة للثعالبي : ٥٤٧ – ٥٤٨ .

وسنحاول في الصفحات القادمة أن نلقي بعض الأضواء على مصطلح « الخلافة في الأرض » من خلال تتبعنا لاستعمال القرآن الكريم لهذا اللفظ واشتقاقاته . لعل ذلك يساعدنا في تحديد مدلوله، وتحرير معناه .

خلافة عامة :

إذا ما تأملنا في قوله تعالى :

(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ۝ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ۝ قال إني أعلم ما لا تعلمون) [1]

نخرج بالنتائج التالية:

- إن الخلافة في هذه الآية مهمة إيجابية يكلف فيها آدم وبنوه في هذه الأرض . ومن هنا نرجح أن

« خليفة » - هنا – بمعنى « فاعل » وليست بمعنى « مفعول » ، ولو كانت بمعنى « مفعول » لم يكن معنىً لقول الملائكة :

(أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك).

كما أن ردّ الله عليهم بقوله :

(قال إني أعلم ما لا تعلمون)

يدل على جهلهم بطبيعة هذا الإنسان وعدم معرفتهم بالحكمة من استخلافه ، غير أن الله سبحانه يكشف لهم عن شئ من طبيعة هذا الإنسان وما وهبه من القدرة على التّعلم وتحصيل المعرفة نظراً لما ميزه به من العقل والحواس فيعلّمه الأسماء كلها التي لا تعرفها الملائكة:

---

١ – البقرة : ٣٠ .

(وعلم آدم الأسماء كلها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ۝ قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ۝ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) [١] .

كذلك يكشف لهم عن قدرة هذا الإنسان على الطاعة والمعصية، نتيجة لما أعطاه الله من الإرادة والاختيار فأسكنه وزوجه الجنة، وطلب إليهما أن يأكلا منها حيث شاءا رغداً، وأن لا يقربا الشجرة المحرمة ، ولكنهما يقعان في المحظور، بإغواء من الشيطان:

(وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ۝ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) [٢] .

غير أن هذا الإنسان الذي وقع في المعصية، قد أعطي القدرة أيضاً على أن يجعل المعصية طريقاً إلى الطاعة، فيتوب من خطيئته ويندم عليها، ويقبل الله توبته ، وبذلك يستخلص الخير من الشر، ويزداد قرباً من الله

(فتلقى آدمُ من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) [٣].

وهكذا يظهر الله للملائكة شيئاً من حكمته في خلق هذا الإنسان كما يبين لهم طبيعة هذه الخلافة، وأنها بالرغم مما قد يظهر فيها من معصية وشر، فإنها تؤول في النهاية إلى العبادة والطاعة. فحقيقة هذه الخلافة إذن : عبادة طوعية لله بالتزام هديه وشرائعه ينشأ عنها ضبط للسلوك الإنساني في علاقته مع الله، وعلاقته بالكون والمخلوقات ، بحيث تسير الحياة الإنسانية ضمن إطار الصلاح .

والحياة على هذه الأرض فرصة الابتلاء والاختبار ليظهر هذا الإنسان مكنون ما أودع الله فيه من الطاقات، وليرتقي في مدارج الكمال بالعبودية لله، من خلال إعماره لهذه الأرض، التي استخلف فيها ، والتي لابد له فيها من مراعاة شروط المستخلف لتتحقق لها صفة الصلاح .

ولما كان الإنسان قادراً على أن يكون مصلحاً وأن يكون مفسداً كان لابد له من أن يكون مستعداً ليتحمل كامل المسؤولية عن أعماله نتيجة نعمة الاختيار التي ميزه الله بها

---

١ – البقرة : ٣١–٣٣ .

٢ – البقرة : ٣٥–٣٦ .

٣ – البقرة : ٣٧ .

(قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدىً فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ۝ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) [١] .

فالخلافة – على هذا - : عبادة طوعية لله، وتسبيح له وتقديس، وإصلاح وإعمار لهذه الأرض ، وهي ضد ما ذهبت إليه الملائكة، وتو همته . ولا يطعن في هذا ويضعفه ما يلاحظه الإنسان أحياناً من فساد جزئي ظاهري، فهو أمر تقتضيه طبيعة الصراع بين الخير والشر، وقد تضمنت الخلافة [٢] نفسها علاج هذا الفساد.

- إن هذه الخلافة : استخلاف منه تعالى للإنسان في هذه الأرض تشريفاً له وتكريماً ، كما ورد في قوله

تعالى : **(ولقد كرَّمْنَا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفَضَّلْنَاهُمْ على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)** [٣] **.**

ونلاحظ في هذه الآية أن التكريم فيها لبني آدم باعتبار جنسهم ، وأنّ التفضيل لهم لامتيازهم على كثير مما خلق الله من المخلوقات المختلفة ، وذلك بحملهم في البر والبحر على ما يركبون ، وبرزقهم من الطيبات ، ويدخل في ذلك كل ما سَخَّرَه الله للإنسان في هذا الكون ، وجعله تحت سلطانه وسيادته .

وهذا التفضيل والتكريم للإنسان في جملته لا يتعارض أيضاً مع فئات من البشر تنحرف في سلوكها وتصوراتها لتكون في النتيجة أقلّ من المخلوقات الأخر كما ورد في قوله تعالى :

(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ۝ ثم رددناه أسفل سافلين ۝ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات)[٤]**.**

وكما قال : **(أولئك كالأنعام بل هم أضل)** [٥] **.**

فالاستخلاف إذاً هو للإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم ، وفضَّله في طريقة حياته على المخلوقات الأخر، وأخذ عليه العهد والميثاق وفَطَرَه على توحيده وعبادته كما قال :

(وإذْ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريَّتَهُم وأشْهَدَهُم على أنفسهم ألست بربكم قالو بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) [٦] **.**

---

١ – البقرة : ٣٨–٣٩ .

٢ – سيأتي بيان ذلك عند الحديث عن « خلفاء الأرض » .

٣ – الإسراء : ٧٠ .

٤ – التين : ٤–٦ .

٥ – الأعراف : ١٧٩ .

٦ – الأعراف : ١٧٢ .

فإن نكَلَ عن هذه المهمة، أو انحرف في أدائها طائفةٌ من الناس، فهذا لا يطعن في أصل استخلاف الإنسان واستعداده وتكريمه . لأنه تكريم باعتبار الجنس، لا باعتبار كل فرد في هذا الجنس . ويشهد لهذا قوله تعالى :

(هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً) [١] **.**

ونلاحظ في هذه الآية : أن الخطاب فيها موجه للبشر عموماً، وأن الله جعلهم « خلائف في الأرض » يخلف بعضهم بعضاً، وأن منهم من يخرج على طاعة ربه ويكفر بما أنزل عليه من الهدى، وأن هذا الكفر لن يفيد الكافرين شيئاً بل يزيدهم بغضاً من الله وخساراً في الدنيا والآخرة .

وأن هذا الكفر الذي قد يحدث من بعض الناس لا يتعارض أصلاً مع مبدأ استخلاف الإنسان في الأرض .

وهكذا فهذا النوع من الخلافة هو خلافة عامة للبشرية جمعاء .

خلافة « خلائف »

عرفنا من حديثنا عن الخلافة بمعناها العام أنها تشمل الجنس البشري بكامله : مؤمنيه وكافريه ، غير أن سنة الله قد جرت في إهلاك الكافرين واستبدال غيرهم بهم كما قال تعالى :

(وإن تَتَوَلَّوا يستبدلْ قوماً غَيْرَكُمْ ثم لا يكونوا أمثالَكُم) [٢] **.** وكما قال تعالى : **(فإن تَوَلَّوْا فقد أبْلَغْتُكُمْ ما أرْسِلْتُ به إليكُم ويستخلف ربِّي قوماً غَيْرَكُم ولا تَضُرُّونَهُ شيئاً إنَّ ربي على كل شيء حفيظ)** [٣] **.**

وكما قال أيضاً **:**

(وربُّكَ الغَني ذو الرَّحْمةِ إن يَشَأ يُذْهِبْكُمْ ويستخلفْ مِن بعدِكم ما يشاء كما أنشَأكُم من ذرِّيةِ قومٍ آخرين) [٤] **.**

وكما قال في سورة إبراهيم **:**

(ألم ترَ أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأتِ بخلق جديد) [٥] **.**

---

١ – فاطر : ٣٩ .

٢ – محمد : ٣٨ .

٣ – هود : ٥٧ .

٤ – الأنعام : ١٣٣ .

٥ – إبراهيم : ١٩ .

وعلى هذا استعملت « الخلائف » في القرآن للأمة التي تخلف الأمة التي أهلكها الله وذلك كما في قوله تعالى:

(ثم جعلناكم خلائفَ في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) [١]

فقد جاء قبل هذه الآية :

(ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاء تهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين) .

فواضح إذن أنه جعلهم « خلائف » بعد إهلاك الظالمين المجرمين قبلهم .

وقد قال الطبري في تفسير هذه الآية : « ثم جعلناكم أيها الناس خلائف من بعد هؤلاء القرون الذين أهلكناهم لما ظلموا ، تخلفونهم في الأرض ، وتكونون فيها بعدَهم . لننظر كيف تعملون ، يقول : لينظر ربكم أين عمَلُكُم مِن عَمَلِ مَن هلك من قبلكم من الأمَمِ بذنوبهم وكُفْرِهِم بربهم ، تحذون مثالهم فيه فتستحقون من العقاب ما استحقوا ، أم تخالفون سبيلَهم ، فتؤمنون بالله ورسوله ، وتُقِرُّون بالبعث بعد الممات ، فتستحقون مِنْ ربكم الثوابَ الجزيل » [٢] .

وكما يكون الاستخلاف لأمَّةٍ بعدَ أمة أخرى إذا كفرَت وتنكَّبَت طريق الهدى ، كذلك في الأمة الواحدة حيث يخلُفُ المؤمنون الكافرين بعد أن يُهْلِكَهُم الله بذنوبهم وذلك كما ورد في شأن قوم نوح عليه السلام حيث قال تعالى :

(فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفُلْكِ وجعلناهم خلائفَ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبةُ المُنْذَرين) [٣] **.**

وهكذا نرى أن صيغة « خلائف » التي هي في الأصل وصف للبشر الذين يخلف بعضهم بعضاً يستعملها القرآن الكريم استعمالاً خاصاً فيجعلها للأمم المؤمنة التي خلفت الأمم الكافرة بعد أن أهلكها الله بذنوبها .

وأن هذه الصيغة تدل على أن الأمم الخالفة يجب أن تكون مخالفة في نهجها وسلوكها الأمم المخلوفة وكما دلت على ذلك الآيات المتقدمة :

(وإن تتولّوا يستبدل قوما غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم)

(فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إنَّ ربي على كل شيء حفيظ) .

خلافة « خلفاء »

وإذا كانت الآيات السابقة جاءت بصيغة الجمع « خلائف » لتدل على هلاك الكافرين واستخلاف المؤمنين بعدهم ، فإن الآيات التالية جاءت بصيغة الجمع « خلفاء » لمن يخلف أمة المؤمنين بعد انقضاء أجلها وذلك كما ورد على لسان هود عليه السلام في خطابه لقوم عاد :

---

١ – يونس : ١٤ .

٢ – الطبري : ٩٤/١١ .

٣ – يونس : ٧٣ .

(أوَ عَجِبْتُم أن جاءَكُم ذِكْرٌ من ربكم على رجلٍ منكم ليُنْذِرَكُم واذكُروا إذْ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ من بعد قومِ نوحٍ وزَادكم في الخلقِ بَسْطة فاذْكُروا آلاء الله لعلَّكُم تُفلحون) [1] **.**

فالمراد بقوله :

(إذْ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ من بعد قومِ نوحٍ) المؤمنون من قوم نوح الذين خلفوا الكافرين بعد أن أهلكهم الله بالطوفان بدلالة الآيات السابقة في شأن نوح عليه السلام وقومه حيث جاء فيها : **(فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين)** ثمّ يقول :

(وإلى عادٍ أخاهم هوداً).وكذلك جاءت صيغة « خلفاء » لثمود قوم صالح، وذلك كما ورد في قوله تعالى:

(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عادٍ وبَوَّأكُم في الأرْضِ تتخذونَ من سهولها قصوراً وتنحِتونَ الجبالَ بيوتاً فاذكروا آلاءَ الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين) [2] **.**

فالمراد بقوله **(إذ جعلكم خلفاء من بعد عادٍ)** المؤمنين من قوم هود الذين خلفوا الكافرين بعد أن أهلكهم الله وقطع دابرهم بدلالة الآيات السابقة في شأن هود وقومه حيث جاء فيها :

(فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) ثمّ يقول :

(وإلى ثمود أخاهم صالحاً) .

وهكذا نرى استعمال صيغة « خلائف » في الوراثة الزمنية للأمم الكافرة التي أهلكها الله ، والتي يجب أن تكون الأمم الخالفة فيها مخالفة للأمم المخلوفة في نهجها وسلوكها ، واستعمال صيغة « خلفاء » في الوراثة الدينية الصالحة لأنها جاءت بعد انقضاء أجل الأمة الصالحة. وهذا يعني أن على الأمة الخالفة أن تقتدي بالأمة المخلوفة، وأن تسير على نهجها وسلوكها، كما نلاحظ أن صيغة « خلفاء » تشير إلى سجايا نفسية في هؤلاء الذين استخلفهم الله كما هو الشأن في كل ما جمع على « فُعَلاء » وكما بينا ذلك من قبل وأنه بالإضافة إلى هذه الخصال والسجايا النفسية، التي ترشحهم للخلافة الصالحة، هناك أيضاً إشارة صريحة في الآيات إلى ما أعطاهم الله من قوة جسمية ومادية، كما قال في عادٍ قوم هود :

(واذكُروا إذْ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ من بعد قومِ نوحٍ وزَادكم في الخلقِ بَسْطة)

فهذه الزيادة في الخلق بسطة هي قوة مادية تضاف إلى سجاياهم النفسية المتضمنة في صيغة « خلفاء » ومثل ذلك جاء في شأن ثمود قوم صالح :

(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عادٍ وبَوَّأكُم في الأرْضِ تتخذونَ من سهولها قصوراً وتنحِتونَ الجبالَ بيوتاً) .

فهذا التبوء في الأرض و الإ قدار على التصرف فيها إنما هو: إشارة صريحة إلى ميزة، وقوة مادية، إلى جانب السجايا النفسية، التي تفهم من صيغة « خلفاء » .

ثم يُذَكِّرُ كُلاًّ من القومين بهذه الخصائص والميزات ليكون ذلك دافعاً إلى الخلافة الصالحة كما قال لـ« عاد »: **(فاذْكُروا آلاء الله لعلَّكُم تُفلحون)** . وكما قال لـ« ثمود »: **(فاذكروا آلاءَ الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين)** .

---

١ – الأعراف : ٦٩ .

٢ – الأعراف : ٧٤ .

ويستفاد من ذلك أيضاً أن التمكين المادي في الأرض والقدرة على إعمارها ليست هي الهدف من الخلافة، وإنما هي وسيلة لهذه الحياة منحها الله للإنسان لتساعده على أعباء الخلافة التي ناطها الله به ، والتي هي الالتزام بما شرعه الله للإنسان والسير على هداه بما يحقق للإنسان الصلاح والسعادة في الدنيا والآخرة .

خلافة أمة محمد ﷺ :

- **« خلائف الأرض » :**

وإذا كانت الأمم يخلف بعضها بعضا خلال التاريخ البشري الطويل فقد انتهت هذه الخلافة إلى أمَّةِ محمد ﷺ ، وليس المقصود هنا بأمة محمد مَن استجاب له وآمن به ، وإنما المقصودُ مَن بُعِثَ إليهم ، وهي أمَّةُ الدَّعْوَةِ حسب الاصطلاح المعروف. وهذا ما يؤكده قوله تعالى: **(وهو الذي جعَلَكُم خلائفَ الأرض ورفَعَ بَعْضَكُم فوقَ بعْضٍ درجات لِيَبْلُوَكُم في ما آتاكُم إنَّ رَبَّكَ سريعُ العِقَاب وإنَّه لغفورٌ رحيم)** [١].

ونلاحظ في هذه الآية أن التعبيرَ فيها

(جعَلَكُم خلائفَ الأرض)

في حين كان في الآيات السابقة:

(خلائفَ في الأرض)

وذلك يوحي بانتهاء خلافة الأرض كلِّها إلى هذه الأمة كما أشرنا إلى ذلك .

وقد قال الطبري في تفسير هذه الآية : « يقول – تعالى ذكره – لنبيه محمد ﷺ وأمته : والله الذي جعلكم أيُّها الناسُ خلائفَ الأرض بأن أهْلَكَ مَن كان قَبلكُم من القرون والأمم الخالية ، و ا ستَخْلَفَكُم فجعلَكُم خلائفَ منهم في الأرض ، تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم » [٢].

وهذا يعني أن على هذه الأمة أن تكون مخالفة في نهجها وسلوكها: لمن سبقها من الأمم الكافرة، التي أهلكها الله بذنوبها، كما هو دلالة صيغة « خلائف » في استعمال القرآن، والتي أشرنا إليها من قبل .

وقد قال مكي بن أبي طالب في كلمة « خلائف » في هذه الآية : وقيل هذا لأمة محمد ﷺ : لأنهم آخرُ الأمم ، قد خلفوا في الأرض من كان قبلهم من الأمم ، ومحمد ﷺ خاتم النبيين ... [٣] »

وهكذا يكون معنى الخلافة في هذه الآية خلافة أمة لأخرى ، وهي تعني النيابة عن المُسْتَخْلَفِ لِغَيْبَتِهِ بالموتِ أو الهلاك .

- **« خلفاء الأرض » :**

قال الله تعالى :

---

١ – الأنعام : ١٦٥ .

٢ – الطبري : ١١٤/٨ .

٣ – المجلد الأول من الهداية إلى بلوغ النهاية – مخطوطة الرباط – ورقة : ٤٤ .

(أَمَّنْ يُجيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ ويكشفُ السوءَ ويَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الأرض أإله مع الله قليلاً ما تَذَكَّرون) [1] .

رأينا فيما سبق أن خلافة الأرض الزمنية قد انتهت إلى أمة محمد ﷺ – أمة الدعوة – وكما دلَّ على ذلك قوله تعالى :

(هو الذي جعَلَكُم خلائفَ الأرض ورفع بعضَكُم فوقَ بعضٍ درجات)، وإذا كان الأمر كذلك وقد حصلت هذه الخلافةُ بالنسبة للأمَّة التي بعث إليها النبي ﷺ ، كان معنى « الخلافة » في قوله تعالى : **(ويَجْعَلُكُم خلفاءَ الأرض)** يشير إلى خلافةٍ أخرى غير الخلافة الأولى ، **خلافةٍ موعودةٍ مُنْتَظَرَةٍ** لا تتناسب أبداً مع الواقع الذي تعيشه هذه الأمة يوم أن كانت تُشْرِك بالله ، وكأنَّ الشَّرْطَ الأوَّلَ في هذه الخلافة هو **توحيدُ الله سبحانَه والتَّوَجُّهُ بالدعاء إليه وحدَه من دون الناس** فهو الذي يُجيبُ المضْطَرَّ إذا دعاه ويكشفُ السوءَ ويَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الأرض .

ولا يفوتنا هنا أن نُنَوِّهَ بتشابه الآيتين من حيث الإضافة:

(هو الذي جعَلَكُم خلائفَ الأرض)،

(ويَجْعَلُكُم خلفاءَ الأرض)

مما يشير بأنّ الخلافة **الأولى للأمة التي بعث إليها النبي** ﷺ ، والخلافة **الثانية للأمة التي استجابت لدعوته** ﷺ .

وهذا المعنى للخلافة المشار إليه في هذه الآية قد وردَ مُصَرَّحَاً به في قوله تعالى :

(وَعَدَ الله الذين آمنوا مِنْكُم وعملوا الصَّالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دينَهُم الذي ارتضى لهم وَلَيُبَدِّلَنَّهُم من بعدِ خوْفِهِم أمناً يَعْبُدونَنَي لا يشركونَ بي شيئاً) [2]

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاءَ الأرض أي : أئِمَّةَ الناس والوُلاةَ عليهم ، وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُم من بعد خوفهم الناسَ أمْنُاً وحُكْمَاً فيهم ، **وقد فعله** تبارك وتعالى ولله الحمدُ والمنة [3] .

وهكذا نجد أن الخلافة في هذه الآية خلافةٌ **خاصةٌ موعودةٌ للذين آمنو وعملوا الصالحات** إذا ما حققوا شروطها من عبادة الله وحده وعدم الشرك به ، وهو نفسُ الشيء الذي كان يدعوهم إليهِ في الآية السابقة حينما كان يَسْتَنْكِرُ شِرْكَهُم الذي يمنع من تحقيق هذه الخلافة

(... ويجعلُكُم خلفاء الأرضِ أإلهٌ معَ الله قليلاً ما تَذَكّرون) .

كما أن صيغة « خلفاء » - هنا – تشير أيضا إلى الوراثة الدينية التي ورثت بموجبها أمة محمد ﷺ الأمم الصالحة التي سبقت وذلك ما يؤكده قوله

(كما استخلف الذين من قبلهم) يعني من الأمم الصالحة ، فهم ولا شك قدوة للمؤمنين ، ولذلك قص الله علينا من قصصهم وذكر لنا أخبارهم ، لنسير على نهجهم فيما التزموا فيه من شرائع الله وتعاليم الأنبياء .

---

١ – النمل : ٦٢ .

٢ – النور : ٥٥ .

٣ – تفسير ابن كثير : ٦٣/ص : ٣١٤ .

والخلافة بهذا المعنى خلافة **اختيارية كسبية** ، يستطيعُ الإنسانُ أن يسعى للحصول عليها إذا ما سَلَكَ إليها طريقَها وقام بتكاليفها وحقّقَ شروطَها، وذلك بخلاف المعاني السابقة لـ«الخلافة» والتي جاءت بصيغة «خلائف».

ولابد لنا بعد ذلك أن نقف أمامَ مظاهر هذه الخلافة كما تبدو من خلال هذه الآية القرآنية وهي :

- **استخلاف المؤمنين كاستخلاف مَن قبلهم :**

ويكاد يجمع المفسرون على أن المقصود بمن قبل المؤمنين هم بنو إسرائيل ، ومن هنا كان لابد لنا أن نعرف شيئاً عن استخلاف بني اسرائيل وبالقدر الذي يوضح معنى هذه الآية، ويكشف عن المراد بالاستخلا ف فيها ، وذلك من خلال النصوص القرآنية نفسها :

يخبرنا الله في القرآن الكريم أن بني إسرائيل كانوا مستضعفين من قِبَل فرعون ، وأنه يريد أن يمن عليهم ويجعلهم أئمةً ويجعلهم الوارثين لفرعون ، وذلك كما في قوله تعالى :

(ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ۝ ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ۝ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ...) [١] .

وهاهم بنو إسرائيل يقفون أمام موسى عليه السلام يشكون أذى فرعون لهم قبل أن يبعث إليهم ومن بعد مابعث:

(قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم و يستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) [٢] .

ونلاحظ – هنا – رجاء موسى عليه السلام باستخلافهم في الأرض بعد إهلاك عدوهم. غير أن موسى عليه السلام يعلم أن هذه الخلافة لا يمكن أن تتحقق بمجرد الرجاء ، وإنما يوجههم إلى طلب شروطها :

(قال موسى لقومه: استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)[٣] .

فإذن لابد من الاستعانة بالله في مثل هذا الأمر الكبير ، ولابد من الصبر الطويل . والنهاية بعد ذلك كله للمتقين . وليس هذا خاصاً ببني إسرائيل وحدهم ، وإنما هو سنة من سنن الله في هذا الكون :

(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) [٤]

وعليهم إذن وقبل كل شيء أن يكونوا متقين وصالخين ليستحقوا هذه الخلافة طبقاً لسنن الله .

وها هو الله سبحانه وتعالى يحقق وعده بإهلاك فرعون وجنوده واستخلاف بني إسرائيل بعد أن نفذوا ما أمرهم به موسى عليه السلام من الصبر والاستعانة والتقوى حيث يقول تعالى :

---

١ – القصص : ٥–٧ .

٢ – الأعراف : ١٢٩ .

٣ – الأعراف : ١٢٨ .

٤ – الأنبياء : ١٠٥ .

(وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) [1] .

ولاشك أن الله سبحانه وتعالى قد حقق وعده للمؤمنين با ستخلافه لهم كاستخلاف الذين من قبلهم ، وكما أخبر الرسول ﷺ فيما أخرجه مسلم [2] عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ...» وكان إخباره بذلك في أول الأمر قبل فتح مكة ، ثمَّ تحقق ذلك كما أخبر فانتشر الإسلام شرقاً وغرباً أكثر من انتشاره شمالاً وجنوباً وقوضت ممالك الفرس والروم تحت ضربات الفاتحين المسلمين ودخلت بلاد كثيرة في الإسلام حتى أصبحت الخلافة الإسلامية تمتد من اندونيسية شرقاً إلى جنوب فرنسا غرباً .

- **تمكين دينهم الذي ارتضى لهم :**

ولقد مكن الله للمسلمين دينهم ، فغدا ديناً قوياً يستعصي على من أراد القضاء عليه ، وذلك بسبب تمامه وكماله ، كما قال تعالى :

(... اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ...) [3]

كما بيَّنَ الغاية من بعثة الرسول بأنها إعزاز هذا الدين وإظهاره على الدين كله ، وذلك في قوله تعالى :

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) [4] ﷺ .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن « تمكين الدين » الذي وعد الله به المؤمنين في الآية شامل للتمكين في الأرض لأنه لا يتصور التمكين في الدين بدون التمكين في الأرض ، وإن كان يتصور التمكين في الأرض بدون التمكين في الدين كما هو مشاهد في الواقع وفي التاريخ ، وكما أشار القرآن إلى ذلك في كثير من الآيات وقد سبق بعضها في قصة عاد وثمود ، والحكمة في هذا التمكين لغير المؤمنين إنما يكون ابتلاءً للكافرين من جانب وعقوبة للمؤمنين من الجانب الآخر ، لأن الله تعالى كما يبتلي بالنقم يبتلي بالنعم:

(ونبلوكم بالخير والشر فتنة) [5]

وكذلك إذا خالف المؤمنون شروط الاستخلاف كان لابد من معاقبتهم ، وإذا كان التمكين للدين بشرط الإيمان والعمل الصالح كما أسلفنا ، فإن اسمرار هذا التمكين مشروط بذلك أيضاً كما قال الله تعالى :

---

١ – الأعراف : ١٣٧ .

٢ – أخرجه مسلم برقم ٢٨٨٩ في الفتن .

٣ – المائدة : ٣ .

٤ – التوبة : ٣٣ .

٥ – الأنبياء : ٣٥ .

(الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) [1] .

- تبديل خوفهم أمناً :

كذلك حقق الله للمؤمنين وعده ، فبدل خوفهم أمناً بعد أن استخلفهم في الأرض ومكن لهم دينهم ، وكل متتبع لتاريخ الدعوة يعرف مقدار الخوف الذي أحاط بالمؤمنين في العهد الملكي ، كما ورد في الصحيحين عن خباب بن الأرت قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدةً فقلنا : ألا تدعو الله لنا ؟ ألا تستنصر لنا ؟ قال : فجلس محمراً وجهه ثمَّ قال : « والله إن من كان قبلكم ليؤخذ الرجل بالمشط فيمشط بأمشاط من حديد ما بين لحم وعصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويؤخذ فتحفر له الحفيرة فيوضع المنشار على رأسه ، فيشق باثنتين ما يصرفه عن دينه ، وَ لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله ﷻ والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » [2] .

ومثل ذلك ما أخرجه البخاري عن عدي بن حاتم قال : بينما أنا عند النبي ﷺ إذ جاء رجل فشكى إليه الفاقة ، ثمّ أتى آخر فشكى إليه قطع السبيل فقال ياعدي : هل رأيت الحيرة ؟ فقلت : لم أرها وقد أنبئت عنها ، قال : فإن طالت بك حياة لتَرَيَنَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحداً إلا الله ، قال قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دُعَّارُ طي ءٍ الذين سعَّروا البلاد ؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، قلت : سرى بن هرمز ؟ قال : كسرى بن هرمز . ولئن طالت بك حياة لَتَرَيَنَّ الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فظة ، يطلب من يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه ، ولَيَلْقَيَنَّ الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له .... » [3] .

قال عدي : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف إلا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز. ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال رسول الله ﷺ .

ولا شك أن هذا الذي أخبر به من خروج الرجل ملء كفه من ذهب أو فظة فلا يجد من يقبله تحقق كما ذكر في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز .

وهكذا فقد أنجز الله وعده للمؤمنين الذين كانوا يعانون من الخوف في أول الإسلام ، ثمَّ بدأ هذا الخوف يزول شيئاً فشيئاً بعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة ، حتى أصبحوا قوة مرهوبة الجانب ، يسير النصر في ركابها أينما سارت ، ويحسب لهم أعدائهم كل حساب .

خلافة كونية .. وخلافة شرعية :

ومن كل ما تقدم نستطيع أن نميز نوعين من أنواع الخلافة : خلافة كزنية يشترك فيها الناس جميعا . وخلافة شرعية خاصة بالمؤمنين وحدهم .

---

١ – الحج : ٤١ .

٢ – انظر فتح الباري ٧ / ١٦٤–١٦٥ .

٣ – البخاري ٦ / ٤٥٠–٤٥١ في الأنبياء .

والخلافة الشرعية : هي التي ينبغي أن تمسك بزمام الخلافة الكونية لتضبط حركتها ولتوجهها إلى طريق الخير ، وذلك بما تملكه من هدى الله وتعاليم الأنبياء . فلو ترك الأمر للخلافة الكونية وحدها ، لاتَّبع الناس أهوائهم ، ولتنكبوا طريق الحق ، ولظهر الفساد في البر والبحر ، ولقتل الناس بعضهم بعضاً ، وهذا ماكانت تخشاه الملائكة حينما قالوا:

(أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)[١]

غير أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما لا تعلمه الملائكة **(قال إني أعلم ما لا تعلمون)** [٢] ، فلقد خلق السموات والأرض بالحق ، وأنزل الكتاب بالحق ، وعلى الناس أن يفيئوا إلى هذا الحق الذي أنزله الله تعالى حتى لا تفسد الأرض

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) .

عليهم أن يفيئوا إلى هذا الحق في عقيدتهم ، فهو الذي يحميهم من فساد التصور وظلام الشكوك ، وانحراف الطريق ، عليهم أن يعلموا أن لا إله إلا الله وأن لو كان معه غيره لفسدت السموات والأرض

(قل لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) [٣] **.**

وعليهم أن يفيئوا إلى هذا الحق بتطبيق شريعته ، والوقوف عند حدوده وحمل الناس على ما يصلحهم ، ومن هنا فقد شُرِعَ لهذه الأمة الجهاد لرفع الفساد من الأرض ، فقال تعالى في حِكمة مشروعية الجهاد

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) [٤]

وبيَّن في الآية الأخرى أن الفساد في الأرض إنما يكون بتهديم أماكن العبادة التي يذكر فيها اسم الله كثيراً ، وقد خصَّ أماكن العبادة بالذكر لأنها المظهر البارز لإقامة الدين وتنفيذ أوامره

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدِّمَتْ صوامع وبِيَع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً) [٥]

وهذا يشير إلى أن الجهاد ليس خاصاً بهذه الأمة ، وإنما هو سنة من سنن الله شرعها الله لكل رسول ولكل أمة ليتم عن طريقها رفع الفساد من الأرض بالمحافظة على أماكن العبادة .

وتستمر هذه الخلافة الشرعية طالما أن المؤمنين ملتزمون فيها بتطبيق أوامر الله عاملون بمقتضى شريعته ، غير أن الناس قلّما يثبتون على حال واحدة ، فبعد أن ينصرهم الله على أعدائهم ويغدق عليهم من واسع نعمه ويمدهم بأسباب الحياة والرخاء يخلدون إلى الأرض ويغرقون في الترف والنعيم ويطمئنون إلى ما هم فيه من هذا العرض الأدنى ، فينسون الله وحاجتهم إليه ، ويستغنون بما عندهم عمّا عند الله ، فعندئذ يعاقبهم الله بسلب هذه النعم وإنزال القوارع ليعودوا إليه ولكنهم يظنون أن ما نزل بهم إنما هم لنقص في تدبيرهم وعدم أخذهم بالأسباب الظاهرة فيعكفون عليها ، ويغريهم في هذا أن غيرهم من الأمم الأخرى غير الملتزمة بالدين ربما كانت في حال من

---

١ – البقرة : ٣٠ .

٢ – البقرة : ٣٠ .

٣ – الأنبياء : ٢٢ .

٤ – البقرة : ٢٥١ .

٥ – الأنبياء : ٢٢ .

القوة والرخاء مع عدم تمسكها بتعاليم الدين وقيمه ، ولو أنهم دقَّقوا في شأن هذه الأمم وتعمقوا في دراسة أحوالها ، لعلموا أن ماهي فيه من تقدم وقوة إنما يعود إلى أجيال سابقة كانت ملتزمة بالقيم الخلقية والدينية فهي نتاج لالتزام سابق واستمرار لقوة الدفع الأولى ، وأن نتائج هذه الأجيال المنحرفة في سلوكها وأخلاقها لم يأت بعد ، ولابد أن يأتي بعد أن تذهب قوة الدفع الأولى بعد أن يخلو المجتمع تماماً من القيم الخلقية والتي مازالت بعض خيوطها تمسك به وتمنعه من السقوط .

خلافة « الحاكم الأمير» :

عرفنا مما تقدم وظيفة الخلافة الشرعية وأهميتها بالنسبة للحياة البشرية ، وبقي أن نعلم أن الخلافة بهذا المعنى تحتاج إلى سلطة تستند إليها ، وحكومة تقوم بتنفيذ متطلباتها وقيادة تشرف عليها وتتحمل تكاليفها وأعباءها ، ومن هنا أطلق على هذه السلطة الحاكمة اسم الخلافة لأن الخلافة الشرعية التي سبق الحديث عنها والتي لا يمكن أن تتحقق إلا عن طريق خلافة الإمارة والحكم ، وهكذا جعل الله داود عليه السلام « خليفة في الأرض »

(يادا ود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) [١] .

ولاشك بأن هذه الخلافة يقوم بأعبائها الأنبياء والرسل في حال وجودهم، كما رأينا ذلك في خلافة داود عليه السلام ، ويقوم بها بعدهم الخلفاء والأمراء الذين يقع عليهم الاختيار من قبل أتباع الأنبياء من المؤمنين من أهل الحل والعقد وأهل الفكر والشورى ، ثمّ تبايعهم جماهير المؤمنين على الطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر طالما أنهم ملتزمون بطاعة الله وتنفيذ شرائعه . وهكذا تقوم هذه الخلافة على العهد والميثاق المتضمن التزام المؤمنين بطاعة أولي الأمر في مقابل التزام الأمراء بطاعة الله ، وبذلك تحقق هذه الخلافة وحدة الأمة بتنظيمها العلاقة بين الحاكم والمحكوم بالرجوع إلى شريعة الله وحده في حال التنازع

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وألي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيءٍ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً) [٢] .

ولما كانت الخلافة بهذا المعنى على غاية من الأهمية ، نظراً للمسؤوليات المناطة بها كان لابد فيمن يرشح لها أن يكون مؤهَّلاً لذلك بصفات خَلْقية وخُلُقية معينة ، وأن يكون من أصحاب المواهب والطاقات الذين عركتهم الأيام وأنضجتهم التجارب . وقد علمنا القرآن الكريم أن لكل عمل أهلية خاصة به بالرغم من أن هناك أهليةً مشتركة بين كثير من الأعمال والوظائف الكبرى ، فالقوة والأمانة من الشروط التي لابد من توافرها في كل من يتصدى لعمل من الأعمال

(قالت يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين)[٣]

---

١ – ص : ٢٦ .

٢ – النساء : ٥٩ .

٣ – القصص : ٢٦ .

والقائد العسكري لابد أن يكون مؤهلاً جسمياً وعلمياً ليستطيع القيام بأعباء مهمته ، ولايمكن أن يرشحه للقيادة العسكرية كونه غنياً صاحب أموال:

(قالوا أنَّى يكون له الملك علينا ولم يُؤتَ سَعَةً من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم) [1]

ومن يقوم على تدبير الأموال العامة وأرزاق الناس واقتصاد الأمة لابد أن يكون قادراً على حفظها وتثميرها عالماً بوجوه الإنفاق المشروع وغير المشروع فيحسن تدبير ذلك كله:

(قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليم) [2] .

وكذلك الخليفة لابد أن يكون عالماً ولا يشترط أن يكون أعلم الناس بتفاصيل الأمور ، ولكن لابد أن يكون أبصر الناس بالحق وأكثرهم تمسكاً به ، ولابد أن يكون من أتقاهم:

(إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

لأن الخوف من الله دليل العلم :

(إنما يخشى الله من عباده العلماءُ)

ولابد أن يكون متواضعاً فلا يرى لنفسه فضيلة على سائر الأمة بل هو أقلُّهم في نظر نفسه ، ولكنه في نفس الوقت أقواهم عزماً لتوكله على الله ، كما أنه لايتردد لبصره بالحق وحفاظه عليه . وإذا فُوِّضَ إليه الأمر استفرغ جهده لإقامة القسط واستشار الناس لحسن ظنه بهم فإذا اتضح له الحق لايصرفه عنه صارف » [3] .

النبوة ... والخلافة ... والملك :

ولما كانت هذه الكلمات الثلاث ، قد يحدث بينها تداخل مع بعض الوجوه كان لابد من بيان الفروق بينها ، حتى لا يلتبس الأمر ، وتضيع المعاني ويقع الناس في سوء فهم المصطلحات .

وقد كان الصحابة ﷺ حريصين كل الحرص على التفريق بين معاني المصطلحات شعوراً منهم بأهمية ذلك وأثره في حياة الناس . فها هو العباس عم الرسول ﷺ يوقف أبا سفيان على مدخل مكة يريه كتائب الاسلام ويعرفه بها حتى إذا وصلت كتيبة المهاجرين :

« قال أبو سفيان : سبحان الله ياعباس ! من هؤلاء ؟ قال : قلت هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال : ما لأحد بهؤلاء من قبل، ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح **ملك** ابن أخيك الغداة عظيماً !!

---

١ – البقرة : ٢٤٢ .

٢ – يوسف : ٥٥ .

٣ – انظر « في ملكوت الله » للفراهي : ٢٩ – ٣٠ .

قال : قلت يا أبا سفيان : إنها **النبوة .** قال: **فنعم اذن** » [١] .

ونلاحظ في هذا النص كيف يصحح العباس عم رسول الله ﷺ المصطلح لأبي سفيان ، وكيف يجيب أبو سفيان بالموافقة .

كذلك ذكر الأسيوطي في حسن المحاضرة [٢] عن ابن سعد في الطبقات أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لسلمان : **أملك أنا أم خليفة ؟** فقال له سلمان : **إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ، ثمَّ وضعته في غير حقه ، فأنت ملك غير خليفة .** فاستعبر عمر .

وخرَّج أيضاً عن عمر قال : والله ما أدري: **أ خليفة أنا أم ملك ؟** فإن كنت **ملكاً** فهذا أمر عظيم .

قال قائل : يا أمير المؤمنين : إن بينهما فرقاً . قال : ما هو ؟ قال : **الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا في حق ،** وأنت بحمد الله كذلك . **والملك يعسف الناس** فيأخذ من هذا ويعطي هذا . فسكت عمر .

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل طلحة والزبير وكعباً وسلمان عن الفرق بين **الخليفة والملك** .

فقال طلحة والزبير : لا ندري .

فقال سلمان : **الخليفة : الذي يعدل في الرعية ، ويقسم بيهم بالسوية ، ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله ، والوالد على ولده ، ويقضي بينهم بكتاب الله تعالى .**

فقال كعب : ما كنت أحسب أن في هذا المجلس من يفرق بين الخليفة والملك ، ولكن الله ألهم سلمان حكماً وعلماً .

هل الخلافة شرعنا ؟ والملك شرع من قبلنا ؟

إن المطالع لكتاب الله تعالى يرى أن الله سبحانه قد شرع للأمم السابقة **النبوية مع الملك ،** وذلك أن النبوة تقيد الملك وتمنع فساده وظلمه ، ومن هنا كثر الأنبياء والملوك في الأمم السابقة وكما نلاحظ هذا جلياً في بني إسرائيل ، حيث يقول تعالى ممتناً عليهم :

(واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا) [٣] .

وقال في داود عليه السلام :

(وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) [٤] .

وقال عن سليمان عليه السلام :

---

١ – السيرة النبوية لابن كثير : ج٣/ص : ٥٥ – تحقيق مصطفى عبد الواحد – طبعة الحلبي .

٢ – حسن المحاضرة : ١٨٠/٢ .

٣ – المائدة : ٢٠ .

٤ – البقرة : ٢٥١ .

(رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب) [١].
و قال عن يوسف عليه السلام :
(رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث) [٢].
فهؤلاء ثلاثة أنبياء أخبر الله أنه آتاهم الملك،
وقال :
(أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً فمنهم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه وكفى بجهنَّم سعيراً) [٣] . فهذا ملك لآل إبراهيم، وملك لآل داود »[٤].

هذا في حين لم يشرع لنا الملك ابتداءً وإنما شرع لنا النبوة ثم الخلافة .

والخلافة : **سير على منهاج النبوة .** وحيث إن النبوة قد ختمت بمحمد ﷺ لم يكن بد من السير على منهاجها ، ولكن إذا تعذر ذلك فهل يجوز أن يكون هناك ملك مع أنه ليست هناك نبوة جديدة توقفه عند حده وتمنع ظلمه عن الناس ؟

ثم هل بإمكاننا أن نجد في نصوص القرآن والحديث الصحيح وأقوال الصحابة ما يضيف الملك إلى المسلمين [٥] على سبيل المشروعية ؟ أو نجد أن كل هذه النصوص تضيف الخلافة وهذا يدل على أن

« الخلافة » هي شريعة . هذه الأمة دون الملك ؟

فمن الأحاديث التي تخبر عن تطور هذا الأمر بالنسبة للمسلمين ما ذكره أبو داود الطيا لسي قال : حدثنا جرير بن حازم عن ليث عن عبدالرحمن بن سابط عن أبي ثعلبة الخشني عن أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال :

« إن الله بدأ هذا الأمر **نبوة ورحمة ، وكائنا خلافة ورحمة ، وكائنا ملكا عضوضا ، وكائنا عزة وجبرية وفساداً في الأمة ،** يستحلون الفروج والخمور ، والحرير ، وينتصرون على ذلك ، ويرزقون أبداً حتى يلقوا الله عز وجل » [٦] .

---

١ – ص : ٣٥ .

٢ – يوسف : ١٠١ .

٣ – النساء : ٥٤ .

٤ – الفتاوى : ٣٣/٣٥ .

٥ – ورد في بعض الأحاديث إضافة الملك للمسلمين على سبيل الإستنكار ، كما ورد في بعضها الآخر إضافته على سبيل الإخبار بما تؤول إليه الأمور في المستقبل .

٦ – الحديث في مجمع الزوائد ١٨٩/٥ وقال: رواه الطبري عن معاذ وأبي عبيدة ..قال وفيه ليث بن أبي سليم وهو ثقة لكنه مدلس، وبقية رجاله ثقات

ومن الأحاديث التي تفرق بين الخلافة والملك ، ما رواه البيهقي من حديث عبدالله بن الحارث بن محمد بن حاطب الجمحي عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« يكون بعد الأنبياء **خلفاء ، يعملون بكتاب الله ، ويعدلون في عباد الله** ، ثم يكون من بعد الخلفاء **ملوك ، يأخذون بالثأر ويقتلون الرجال ويصطفون الأموال** فمغير بيده ومغير بلسانه وليس وراء ذلك من الإيمان شيء » [١] .

ومما يدل على أن الله قد شرع لنا الخلافة وحدها ابتداءً ما ورد في صحيح البخاري من حديث شعبة ، عن قراب القزاز ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال :

« كان بنوا إسرائيل تسوسهم **الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي** ، وإنه لا نبي بعدي وإنه سيكون خلفاء فيكثرون . قالوا : يا رسول الله فماذا تأمرنا ؟ قال : فوا ببيعة الأول فالأول ، وأعطوهم حقهم ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم » [٢] .

ويرى ابن تيمية من هذا الحديث الشريف أنه يجوز تسمية مَن بعد الخلفاء الراشدين « خلفاء » وإن كانوا ملوكا ولم يكونوا خلفاء الأنبياء ، لأن قوله « فتكثر » دليل على من سوى الراشدين فإنهم – الراشدين – لم يكونوا كثيراً . وأيضاً قوله : « فوا بيعة الأول فالأول » دلَّ على أنهم يختلفون ، والراشدون لم يختلفوا. وقوله: « وأعطوهم حقهم ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم » دليل على مذهب أهل السنة في إعطاء الأمراء حقهم من المال والمغنم .. » .

ويرى ابن تيمية أن مصير الأمر إلى الملوك ونوابهم من الولاة والقضاة والأمراء ليس لنقص فيهم فقط بل لنقص في الراعي والرعية جميعا ، فإنه « كما تكونون يولّى عليكم » وقد قال الله تعالى :

(وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً) .

ثم يبين ابن تيمية رأيه فيما أشار إليه الحديث من الملك بعد خلافة النبوة فيقول : « والغرض هنا بيان جماع الحسنات والسيئات الواقعة بعد خلافة النبوة في الإمارة وفي تركها فإنه مقام خطر ، وذلك أن خبره بانقضاء « خلافة النبوة » فيه الذم للملك والعيب له ، لاسيما وفي حديث أبي بكرة أنه استاء للرؤيا ، وقال : « خلافة نبوة ثم يؤتي الله الملك من يشاء » ثم النصوص الموجبة لنصب الأئمة والأمراء وما في الأعمال الصالحة التي يتولونها من الصواب حمد لذلك وترغيب فيه . فيجب تخليص محمود ذلك من مذ مومه ، وفي حكم اجتماع الأمرين . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « إنَّ الله خيَّرني بين أن أكون عبداً رسولاً وبين أن أكون نبياً ملكاً ، فاخترت أن أكون عبداً رسولا » .

فإذا كان الأصل في ذلك شوب الولاية – من الإمارة والقضاء والملك – هل هو جائز في الأصل والخلافة مستحبة ؟ أم ليس بجائز إلا لحاجة من نقص علم أو نقص قدرة بدونه ؟ فنحتج بأنه ليس بجائز في الأصل. بل الواجب خلافة النبوة لقوله ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فكل بدعة ضلالة » بعد قوله : « من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً » فهذا أمر وتحضيض على لزوم سنة الخلفاء وأمر با لاستمساك بها ، وتحذير من المحدثات المخالفة لها ، وهذا الأمر منه والنهي دليل بيِّن في الوجوب

---

١ – شمائل الرسول : لابن كثير : ص٣٨٢ – تحقيق مصطفى عبد الواحد – طبعة الحبي .

٢ – أخرجه البخاري ٦/٣٦٠ في الأنبياء ، ومسلم برقم ١٨٤٢ في الإمارة .

... وأيضا فكون النبي ﷺ استاء للملك بعد خلافة النبوة دليل على أنه متضمن ترك بعض الدين الواجب .

وقد يحتج من يجوز الملك بالنصوص التي منها قوله لمعاوية : « إن ملكت فأحسن » ونحو ذلك. وفيه نظر. ويحتج بأن عمر أقر معاوية لما قدم الشام على مرآه من أبَّهة الملك ، لما ذكر له المصلحة فيه فإن عمر قال : لا آمرك ولا أنهاك . ويقال في هذا : إن عمر لم ينهه لا أنه أذن له في ذلك ؛لأن معاوية ذكر وجه الحاجة في إلى ذلك ، ولم يثق عمر بالحاجة ، فصار محلَّ اجتهاد في الجملة .

فهذان القولان متوسطان : أن يقال الخلافة واجبة وإنما يجوز الخروج عنها بقدر الحاجة . أو أ، يقال : يجوز قبولها من المِلِك بما يُيَسِّرُ فعل المقصود بالولاية ولا يعسِّره ، إذ ما يبعد المقصود بدونه لابد من إجازته .

وأما مُلْكٌ مطلق : فإيجابه أو استحبابه محل اجتهاد ..... وتحقيق الأمر أن يقال : انتقال الأمر عن خلافة النبوة إلى الملك : إما أن يكون لعجز العباد عن خلافة النبوة ، أو اجتهاد سائغ ، أو مع القدرة على ذلك: علماً، وعملاً . فإن كان مع العجز: علماً، أو عملاً كان ذو الملك معذوراً في ذلك . وإن كانت خلافة النبوة واجبة مع القدرة سقطت كما تسقط سائر الواجبات مع العجز كحال النجاشي لما أسلم وعجز عن إظهار ذلك في قومه بل حال يوسف الصديق تشبه ذلك من بعض الوجوه ، لكن الملك كان جائزاً لبعض الأنبياء كداود وسليمان ويوسف . وإن كان مع القدرة علما وعملا وقدّر أن خلافة النبوة مستحبة ليست واجبة وأن اختيار الملك جائز في شريعتنا كجوازه في غير شريعتنا ، فهذا التقدير إذا فرض أنه حق فلا إثم على الملك العادل أيضا .. ».

وانظر تفصيلات أخرى ذكرها ابن تيمية في فتاواه [1] وقد نقلنا عنه بشيء من الاختصار لتوضيح هذه النقطة.

ولعل من المناسب في نهاية هذا البحث أن نذكر بعض اللطائف والآثار التي تؤكد ما انتهينا إليه من شرعية الخلافة ابتداءً لهذه الأمة دون الملك .

لطيفة من « ثمار القلوب » للثعالبي :

كان أبو الفتح البستي يستحسن قولي في كتاب « المبهج » : الملك : **خلافة عن اللع في عباده وبلاده . ولن تستقيم خلافته مع مخالفته .**

وفي ترجمة أبي عبد الله المقري التلمساني من « تكملة الديباج » عنه أنه قال : سألني بعض الفقراء عن سوء بخت المسلمين في ملوكهم ، إذ لم يَلِهِم من سلك بهم الجادة ، بل من يغتر بدنياه ، غافل عن عقباه ، لا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة ، فأجابته : بأن الملك ليس في شرعنا ، بل هو شرع

---

١ – الفتاوى : ٣٥/٣٠–٣٥ .

من قبلنا ، قال تعالى ممتناً على بني إسرائيل : **(وجعلكم ملوكاً)** [1] **.** وقال : **(قد بعث لكم طالوت ملكاً)** [2] **.** وقال **:** **(وهب لي ملكاً)** [3] **.** ولم يشرع لنا الخلافة .

فأبو بكر خليفته عليه السلام ، كما فهم الناس وأجمعوا عليه ، واستخلف عمر ، فخرج عن طريق الملك الذي يرثه ولد عن والد التي هي النظر والاختيار . ثم اتفق أهل الشورى على عثمان . وأخرجها عمر عن بنيه ، لأنها ليست ملكاً . ثم تعين على بعد إذ لم يبقَ مثله ، فبايعه من آثر الحق على الهوى ، والآخرة على الدنيا ، ثم الحسن كذلك .

ثم كان معاوية أول من حولها ملكاً ، والخشونة لينا ، ثم إن ربك بعدها لغفور بحيم . فصارت ميراثاً ثم لما خرجت عن وصفها لم تستقم ملكاً .

وكان عمر بن عبد العزيز **خليفة** ، لأن سليمان آثر حق المسلمين فرغب بني أبيه ، وعلم اجتماع الناس إليه . فلم يسلك طريق الاستقامة إلا **خليفة .** وأما الملوك فكما دكرت **إلا مَن قَلَّ** ، وغالب حاله غير مضي .

ومن اللطائف التي تبين قيود طاعة أولي الأمر ، ما قاله الحافظ في أول كتاب « الأحكام » من الفتح : ومن بديع الجواب قول بعض التابعين لبعض الأمراء من بني أمية لما قال له : أليس الله أمركم أن تطيعوني في قوله :

(وأولي الأمر منكم) .

فقال له : أليس **قد نزعت عنكم** إذا خالفتم الحق بقوله : **(فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله ..)** .

قال الطيبي : أعاد الفعل في قوله : « **أطيعوا الرسول** » إشارة إلى استقلال الرسول بالطاعة. ولم يعده في : « **أولي الأمر** » إشارة إلى أنه يوجد فيهم **من لا تجب طاعته .** ثم بين ذلك بقوله : **(فإن تنازعتم في شيء)** كأنه قيل : « **فإن لم يعملوا بالحق ، فلا تطيعوهم ، وردوا ما تخالفتم فيه إلى حكم الله ورسوله** » [4] **.**

الخلافة ... والمصطلحات الحديثة :

ولابد أن نشير في نهاية هذا البحث إلى مصطلح « الخلافة في الأرض » وهو المصطلح القرآني الذي لا يجوز لنا العدول عنه في موضوعه إلى مصطلح آخر .

وأن ما يلجأ إليه بعض الناس عن حسن نية أو سوء نية من استعمال مصطلحات أخرى في هذا الموضوع لشبه جزئي أو عارض بينهما وبين الإسلام لا يخدم الشريعة الإسلامية وإنما يغشها

---

١ – المائدة : ٢٠ .

٢ – البقرة : ٢٤٧ .

٣ – ص : ٣٥ .

٤ – يراجع في هذه اللطائف والأخبار كتاب « التراتيب الادارية » لعبد الحي الكتاني .

ويشوشها في ذهن القارئ ، وقد يؤدي إلى تحريفها وهدمها ، وذلك أن لكل نظام أسسه ومصطلحاته ، ومن الخطأ الكبير استعارة المصطلحات من نظام آخر .

عودة على بدء

عرفنا مما تقدم معاني « الخلافة في الأرض » كما وردت في القرآن الكريم ، وأنه قد يراد بها المعنى العام الذي هو استخلاف الجنس البشري بكامله كاستخلاف آدم وبنيه .

وقد يراد بها معنى أخص من المعنى العام الذي هو استخلاف أمة لأخرى ، وأن هذا المعنى الأخص قد يراد به « خلافة خلائف » إذا كانت الأمة الخالفة خلفت أمة كافرة أهلكها الله ، وفي هذه الحالة مطلوب من الأمة الخالفة أن تكون مخالفة لما كانت عليه المخلوفة .

وقد يراد به « خلافة خلفاء » إذا كانت لأمة الخالفة خلفت أمة مؤمنة بعد انتهاء أجلها ، وفي هذه الحالة مطلوب من الأمة الخالفة أن تقتدي بالأمة المخلوفة وتسير على نهجها .

كما عرفنا أيضاً أن خلافة الأمم كلها انتهت إلى أمة الرسول ﷺ باعتبارها وراثة الأمم والرسالات ، وأن هذه الخلافة شاملة لخلافة « الخلائف » وخلافة « الخلفاء » وأن هذه الأمة مطالبة بمخالفة الأمم الكافرة التي أهلكها الله كما أنها مطالبة بالاقتداء بالأمم المؤمنة التي انتهى أجلها . ومن ثمَّ فقد قصَّ الله علينا في القرآن الكريم قصص الأمم السابقة لتكون لنا عظةً عبرةً ، ولنكون في خلافة « خلائف » مخالفين للأمم الكافرة في نهجها وسلوكها ، ولنكون في خلافة « الخلفاء » متأسِّين بمن سبقنا من الأمم الصالحة:

(أولئك الذين هدى الله فبهدا هم اقتده) .

كما بيَّنَّا أيضاً أن « الخلافة » قد تطلق بمعنى أخص من معنى خلافة أمة لأمة أخرى إذ تطلق على خلافة الحكم والإمارة كما هو الشأن في خلافة داود عليه السلام .

ولما كانت خلافة « الخلائف » خلافة كونية تتم بإهلاك الأمة المخلوفة وقيام الخالفة مقامها دون أن يكون للخالفة في ذلك إرادة أو اختيار ، وكانت خلافة « الخلفاء » خلافة شرعية تبدأ بوراثة الأمة الصالحة التي انتهى أجلها إلا أنها لا تتم إلا بشروط معينة من الالتزام بتوحيد الله وطاعة أوامره كما بينا ذلك من قبل ، وأن هذا كله مقدور للإنسان لأنه داخل في حدود اختياره وإرادته ، فإننا نجد خلافة « الخلفاء » يتردد أمرها بين مدٍّ وجزر بحسب اقترابها وابتعادها من تعاليم الدين وقيمه ، كما نلاحظ ذلك في تاريخ خلافة هذه الأمة ، وما انتهى إليه أمرها يوم أن تحطمت دولة الخلافة بعد أن فقدت مقوماتها الحقيقية ، وانحرفت عن منهج الله ، فوقعت فريسةً للقوى المتآمرة عليها المتربصة بها . وبذلك طويت صفحة من صفحات القوة في تاريخ هذه الأمة ، وبدأت صفحة من صفحات الضعف نتيجة لانفراط عقد الخلافة وتفرقها إلى دول متعددة .

إن واقع التمزق والتفرق الذي انتهينا إليه ، وواقع الضعف والتخلف الذي نعيشه ، وقد أغرى بنا أعداءنا، وجعل من شذاذ الآفاق قوةً تجترئ علينا وتعيث في أرضنا فساداً ، فتنتهك حرمة مقدساتنا ، وتحتل أجزاء من أراضينا ، وتضرب أطفالنا ونساءنا وشيوخنا دون أن تخشى لوماً أو عقاباً ، ودون أن تعبأ بأعراف أو قوانين . إن ذلك كله لا يمكن أن يكون لو كان للخلافة وجود وللمسلمين كيان يجمع قوتهم ويلم شعثهم .

وإذا كان ما انتهينا إليه نتيجة طبيعية لما اقترفته أيدينا ، بابتعادنا عن مصادر قوتنا ووقوعنا تحت تأثير الغزو الفكري لأعدائنا ، فإن علينا ألا نركن إلى ما نحن فيه من الضعف ، وألا نستسلم للأمر الواقع وألا نيأس من إمكانية تغيير ما نسبح فيه من الأوحال ، لأننا نعلم أن تاريخ الأمم والشعوب مدٌّ وجزر وقوة وضعف ، وتقدم وانحطاط ، فما علينا إلا أن نحاول استجماع قوانا ، وشحذ عزائمنا وتدارك ما فاتنا من شروط النهضة ومقوماتها .

إن عصر الدول المعتمدة على نفسها ، المكتفية بقوتها ومواردها ، والتي لا ترى حاجة للتعاون مع غيرها قد ولَّى إلى غير رجعة . لقد أصبح العالم بفعل التطور العلمي السريع كأنه باد واحد ، لقد قضت الاتصالات السريعة والوسائل العلمية الحديثة والمكتشفات على ما كان من عزلة بين الدول ، فطويت المسافات البعيدة ، وتداخلت مصالح الأمم والشعوب ، فنشأت التكتلات العقائدية والفكرية ، والتحالفات السياسية ، وام يعد مكان للدول المنعزلة والدويلات الصغيرة في عالم الكبار . إن هذا التطور جاء ليؤكد ما جاء به الإسلام قبل أربعة عشر قرناً حين أقام دولته على أساس العقيدة ، وجعل أمته تضم شعوباً وقبائل متعددة ، تجمعها الأخوة الإسلامية فكانت الخلافة الإسلامية خلال التاريخ المظلة التي استظل بها المسلمون ، والقوة التي حمتهم من بطش الغزاة .

إن ما نراه في واقعنا المعاصر من قيام دول كبرى تضم شعوباً متعددة تجمعها عقيدة واحدة كالاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، وما نراه من تكتلات إقليمية وتحالفات سياسية وأسواق تجارية تجمع دولا متعددة تربطها مصالح مشتركة يؤكد لنا أن للخلافة الإسلامية مكاناً في عالمنا ، فالبد لنا أن نسعى من جديد ليكون للمسلمين ما ينظم شملهم ، ويحقق مصالحهم ، ويحفظ وجودهم ، ولن نجد مثل ذلك إلا في الخلافة .

فهرس

مقدمة ٢
معنى كلمة « الخلافة » ٤
جموع « خليفة » والفروق بينها ..... ٤_٥
خلافة آدم عليه السلام ٥
خلافة عن الله ٦
ابن تيمية لا يجيز « خلافة عن الله » ٨
ما يشهد للمجيزين « الخلافة عن الله » ٩
ما استخلف فيه آدم ١١
خلافة عامة ١١
الخلافة مهمة إيجابية ١١
قدرة الإنسان على التعلم ١٢
قدرة الإنسان على الطاعة والمعصية ١٢
حقيقة الخلافة ١٢
الخلافة تكريم للإنسان ١٣
خلافة « خلائف » ١٥
خلافة « خلفاء » ١٦
خلافة أمة محمد ﷺ ١٨
« خلائف الأرض » ١٨
« خلفاء الأرض » ١٩
استخلاف المؤمنين كاستخلاف من قبلهم ٢١
تمكين دينهم الذي ارتضى لهم ٢٢
تبديل خوفهم أمناً ٢٣
خلافة كونية .. وخلافة شرعية ٢٤
خلافة « الحاكم الأمير » ٢٦
النبوة .. والخلافة .. والملك ٢٨

هل الخلافة شرعنا .. والملك شرع من قبلنا..... ٢٩
لطيفة من « ثمار القلوب » للثعالبي ٣٣
الخلافة .. والمصطلحات الحديثة..... ٣٤
عودة على بدء ٣٤